

## علاقة الطقس بالأسطورة

أ. أوشاطر مصطفى  
قسم الثقافة الشعبية  
كلية الآداب

والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية  
جامعة أبي بكر بلقايد  
- تلمسان -

**الملخص** إنه من الصعب جدا الفصل بين الأسطورة و الطقس ، كما أنه ليس من السهل أن نقرر أيهما أسبق ، فقد تبعد الأسطورة

علاقة بالطقس ، ويظهر الطقس مطبوعا بطابع أسطوري ، وهذا التداخل هو الذي سبب صعوبة التفرقة بينهما ، وهذا ما جعل الباحثين يتأملون بعمق هذين المصطلحين ، و الإشكالية التي انطلقوا منها في البحث تتعلق أساسا : - بتوضيح الصلة التي تربط الأسطورة بالطقس عن طريق مجموعة من الأسئلة من مثل :

هل تنشأ الأسطورة عن الطقس ، أم ينشأ الطقس عن الأسطورة ، أم هما وجهان لظاهرة دلالية واحدة ؟  
و قبل الإجابة عن هذه التساؤلات ، والسعي إلى فهم طبيعة الصلة بين الطقس و الأسطورة أرى أنه لا بد من طرق مفهوم هذا المصطلح أولا ، فما هو تعريفه ؟

### \* تعريف الطقس

يشير المعنى اللغوي لكلمة طقس إلى الطريقة - إشارة إلى الطريقة الدينية - و هو بمعنى النظام و الترتيب وإقامة الشعائر. (1)

أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فلا يمكن حصره في تعريف جامع ، مانع يكون محل اتفاق جميع الباحثين و المتخصصين ، فقد خاض علماء النفس ضمن مدرسة التحليل النفسي وعلماء القولكلور و الأنتروبولوجيا و علم الاجتماع جهودا ضخمة لمحاولة سبر أغوار هذه الممارسة الإنسانية و كل ما يحيط بها .

فبالنسبة للتحليل النفسي ، فإن الطقس هو : " عبارة عن وضع القوى التي تتحرك في اللاوعي موضع العمل على الصعيد الاجتماعي ، فيمكن القول إنه العارض العصبي ، إنه تسوية بين رغبات الأنا و العائق الذي يمنع تحقيقها" (2)

غير أن هذا المفهوم لا يكفي للإلمام بكل جوانب لكلمة ، فالطقس ليس فقط تعبرا عن صراعات مكتوبة في اللاوعي مثلما ذهب أنصار التحليل النفسي و على رأسهم " سيغموند فرويد " وإنما هو كذلك محاولة لطمأنة

الجماعة من خبايا المجهول ، فالطقس يندرج ضمن علاقة الإنسان بالكون الشامل ، و على هذا الأسس يعرف العالم الأثنوبولوجي "لوك دو هيتش" **luc de heusch** الطقس كما يلي :

"الطقس يعني كل نسق تواصل مع العالم الغيبي ، العالم الشبحي أو الأسطوري ، نسق إشاراتي مستقل ، يستعمل الحركات و اللغة أيضا" (3) .

الطقس من منظور هذا التعريف هو لغة تواصل ، تستعمل الحركة و اللسان ، لغة يخاطب بها الإنسان العالم الوهمي ، فهو كما عبر عن هذا المعنى الباحث السوري فرس السواح :

" مجموعة من الإجراءات و الحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية ، و تهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية ، و لعل الموسيقى الإيقاعية و الرقص الحر كانا أول أشكال هذا السلوك الطقسي التلقائي ، الذي تحول تدريجيا إلى طقس مقنن تجري تأديته وفق قواعد مرسومة . " (4)

فالمتقصد بالطقس هو تلك الشعائر والحركات التي يؤديها المرء مع أقرانه في مناسبات محددة ذات طابع قدسي ، و لهذه النظرة أهميتها لأنها تقضي إلى القول بأن الطقس ليس عبثا أو هوا ، و إنما هو شيء مقدس بل هو شكل من أشكال العبادة الدينية أو مظهر بضفي على الحياة الاجتماعية طابعا من التقيد التنظيمي و التعبير الاحتفالي ، و هذا ما حاولت الرؤية السوسولوجية التوصل إليه حيث رأى R. Bastide أن وظيفة الطقس الأولية هي وظيفة "الاسترجاع الجماعي ، المستذكر لأصول الأسطورة و الدين" (5)

عبر عن هذه الفكرة عالم الاجتماع الفرنسي **JEAN CAZANEUVE**

" جان كزنوف " حيث ذهب إلى القول بأن الطقس يظهر " كفعل مطابق لعرف جماعي ، و الذي تدرج فعاليته على مستوى فوق - امبريقي - ويتظاهر إذن بكل خصوصية في العادات و التقاليد العرفية و التي تبرر ذاتها ليس فقط بمحددات داخل العالم الطبيعي بل تدخل كذلك علاقة الإنسان بالعالم ما فوق - الطبيعي" - (6)

و ميزة هذا التعريف تتجلى في إبراز خصوصية الطقس بالنسبة لكل التقاليد و الأعراف داخل مجتمع معين ، فبالإضافة إلى كونه لا يغفل الجانب الطبيعي للطقس ، فهو كما يقول في موضع آخر ، إنه :

" ممارسة تقليدية لها فعالية خاصة . " (7)

و خلاصة القول فإن لفظ الطقس هو ترجمة للكلمة الفرنسية :

" Rite " المشتقة من الكلمة اللاتينية ( RITUS ) و تعني : " عادات و تقاليد مجتمع معين كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي . " (8)

## ممارسة الطقوس

سبقت الإشارة إلى أن الطقوس ليس ممارسة اعتباطية أو عفوية ، فهو سلوك إنساني يتكرر في ثبات من الزمان و المكان و ممارسته تخضع لقواعد مضبوطة ، ليست مكتوبة في أغلب الثقافات ، بل مسجلة في الذاكرة الشعبية ، هي عادة ما تكون جماعية ، و قد تتخذ أحيانا هيئة فردية ، ولكن حتى في هذه الحالة يلاحظ أن الصيغة الجماعية تظل هي الخلفية التي تستمد منها كل ممارسة فردية للطقوس معناها و مشروعيتها . لأن الفرد حين ينجز متطلبات أي طقس فإنما بدافع إرضاء الجماعة و عدم الخروج عليها . " فمن خلال أداء حركات معينة أو رقصات إيقاعية و تكرار صيغ كلامية ذات أثر خاص على النفوس ، يمكن للأفراد المستغرقين في الأداء الطقوسي الجمعي الانتقال إلى مستويات غير اعتيادية للوعي ، يشعرون معها بتلاشي الحدود بين العوالم الدنيوية و العوالم القدسية". (9)

## علاقة الطقوس بالأسطورة

تناول الكثير من الباحثين و المتخصصين طبيعة العلاقة بين الأسطورة و الطقوس و قدموا بشأنها وجهات نظر غنية ، جديرة بالدراسة تتمحور حول الآراء الآتية :

- الأول : يقول به القسم الأكبر من الباحثين و تعرف آراؤهم بنظرية الأصل الطقوسي للأسطورة و خلاصتها : أن الطقوس سبقت الأساطير و الأسطورة كانت لشرح الطقوس .

يقول فرانس السواح : " ظهرت بنور هذه النظرية لأول مرة في كتاب دين الساميين لمؤلفه " روبرتسون سميث " عام 1899 . و رغم أن أفكار هذا الكتاب قد غدت بالية مع مطلع القرن العشرين ، إلا أن أفكار روبرتسون سميث في نشوء الأسطورة عن الطقوس قد كسب لها الاستمرار و الانتشار ". (10)

و أتوقف عند رأي روبرتسون سميث الذي يقول : " ما دامت الأساطير تفسيرات للشعائر ، فقيمتهما ثانوية عموما و لنا أن نؤكد واثقين بأنه في كل حالة تقريبا تكون الأساطير مشتقة من الطقوس ، لا الطقوس من الأساطير ". (11)

الثاني : و توجه آراؤهم إلى اعتبار الأسطورة مستقلة عن الطقوس .

و في إطار هذا الرأي ، يبين العالم الانثروبولوجي " كلود ليفي ستراوس " بأن :

" الارتباط الذي يقيمه عادة الانثولوجيون بين الطقوس و الأسطورة غير معمم البتة ، بعبارة أخرى كثيرة هي الطقوس التي تعمل بطريقة مستقلة نسبيا عن الوقائع الدينية أو الأسطورية ". (12)

فمن منظور ليفي ستراوس ، تختلف الأسطورة عن الطقوس بنويها لأن " القيمة الدالة لمجموعة الطقوس تبدو منحصرة في الأدوات و في الحركات ، فهي قرين لغة ، فيما تتجلى الأسطورة على أنها ( ما وراء اللغة ) ، فهي

تستلهم القول استخداما تاما ، لكنها تضع التقابلات الدالة الخاصة بها في درجة من التعقيد أعلى من الدرجة التي يتطلبها اللسان عندما يعمل لغايات دينوية " (13)

- الثالث : و يلح من خلاله بعض الباحثين على ارتباط الأسطورة بالطقس .

و نلتقي في إطار هذا الرأي مع الفيلسوف الألماني " إرنست كاسير " الذي وجد في دراسة الطقس مفتاحا يمكن من فهم الأسطورة ، لقد نظر إليهما على أساس أن كلا منهما يجسد جانبا من جانبي التجربة الدينية ، فالأسطورة تمثل العنصر الملحمي في الحياة الدينية البدائية و الطقس يمثل العنصر الدرامي فيها ، فهما مرتبطان مع بعضهما البعض ، الأمر الذي صعب على كاسير إثارة تساؤلات تتناول موضوع أسبقية الطقس بالنسبة إلى الأسطورة أو العكس ، بل ذهب إلى حد القول بأنه " لا وجود لأي انفصال بين الطقس و الأسطورة لأكما متضايفان ، و بينهما تبعية متبادلة ، فكلاهما يدعم الآخر و يفسره " (14)

و في السياق ذاته أوضح صموئيل هنري هوك دور الأسطورة الطقسي ، فالبشرية برأيه عاشت " في الماضي طيلة أحقاب هائلة من الزمن دون إحساس بالحاجة إلى التاريخ ، لكن الأسطورة و قبل ظهور أقدم أشكال التسجيل التاريخي كانت لها وظيفة حيوية في حياة الجماعة ، و ساعدت كجزء جوهري من الطقس في ضمان تلك الشروط التي اعتمدت عليها حياة الجماعة " (15)

أما الباحث " مانيوفسكي " فقد أكد الرابطة التي تشد الأسطورة إلى الطقس و ين " أن الأساطير هي التي تكفل فعاليات الاحتفالات الطقسية ، و تقدم القواعد المتصلة بشؤون الحياة اليومية " (16)

و أقل ما يقال بعد عرض هذه الآراء التي تناولت البحث في صلة الأسطورة بالطقس أنها عكست جهد الباحثين في سبيل تتبع جنور الأسطورة و الطقس ، تلك الجنور العميقة الموغلة في عمق بدايات الإنسان و الأمر كما نراه هو أننا لا نستطيع الانحياز لأي رأي من هذه الآراء ، لأن كلا من الأسطورة و الطقس ناتج عن مواقف و أفكار مبدئية تشكل لدى الإنسان من إحساسه بوجود عالم ما وراء ، و هو يعبر عن هذا الإحساس بطريقتين ، الأولى سلوكية تبدى من خلال الطقس و الثانية ذهنية تبدى عن طريق الأسطورة .

فالأسطورة في نظر الكثير من الباحثين إنما هي : " الجزء القولي المصاحب للطقوس ، و هذا التعريف يطابق ما يقوله كثير من ثقافة الباحثين في الأثرولوجيا و الدراسات القديمة " (17)

و فيما يلي هذا القول الذي يجسد هذه الفكرة و هو للباحث العربي فراس السواح ، يقول : " إن المعتقدات التي تلعب الأسطورة دورا أساسيا في تثبيتها و ترسيخها ، تبقى بالنتيجة صورا و أفكارا على هذه الدرجة من الوضوح أو تلك ، و لكن هذه الصور و الأفكار لا تصنع دينيا بلغا ما بلغ من وضوحها و اتساقها إلا عندما تدفع إلى سلوك و فعل ، فيتم الانتقال من حالة التأمل إلى الحركة و من التفكير في العوالم القدسية إلى اتخاذ مواقف عملية منها ... فإذا كانت المعتقدات و ما يلور حولها من أساطير تضعنا في موقف ديني من القدسي فإن الطقس يضعنا في موقف عملي " (18)

- 1- المناجد في اللغة و الأعلام : ملحة طقس - دار لمشرق - بيروت - 1986 ص 468
- 2- لضر نور الدين طوالي : إشكالية المقدس - منشورات عويدات - مؤسسة لوطنية للكتاب - الجزائر - ص 13
- 3-Luc de Heusch - Introduction a une Rithologie Generale - OPCIT - Page 213
- 4- فرانس السواح : الأسطورة و المعنى - دراست في الميثولوجيا و الديكت لمشرقية منشورات دار علاء الدين - دمشق - دت ص 129
- 5- R . Bastide - sociologie des mutations religieuses P.U.F - Paris Page 69
- 6- Jean Cazaneuve - les rites - Encyclopedie Universelle - Voll - 14 Page 284
- 7- Jean Cazaneuve - sociologie de Marcel Maus - P.U.F- P. 66
- 8- نور الدين طوالي : الدين و الطقوس و التغيرات - د.م. ج - الجزائر - ط 1 - 1981 ص 34
- 9- فرانس السواح : الأسطورة و المعنى - ص 129
- 10,11- فرانس السواح : الأسطورة و المعنى - ص 145
- 12-13 Claude Levi-Strauss - Anthropologie Structurale - chapitre 6 - la structure des mythes - librairie-Plon- 1958 et 1974 page 235
- 14- إرنست كسير : الدولة و الأسطورة - ترجمة الدكتور أحمد حمدي محمود - الهيئة المصرية للعلم للكتاب القاهرة - 1975 ص 43
- 15- صموئيل هنري هوك : منعطف لمخيلة لبشرية - بحث في الأساطير - ترجمة : صبحي حبيبي - دار الحوار - اللاذقية - ط 1 - 1983 - ص 10, 11
- 16- مرسيا إيلد : ملامح من الأسطورة - ترجمة : حبيب كسوحة - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - 1995 - ص 11
- 17- شكري محمد عيد : البطل في الألب و الأساطير - دار المعرفة - القاهرة - 1959 - ص 85
- 18- فرانس السواح : الأسطورة و المعنى - ص 129

